(٤٦) أبو الحسين النُّوري[١]

ذكر الشيخ أبي الحسين النُّوري قدس الله سره:

كان رحمه الله فريدًا في عصره، قدوةً في وقته، ظريفًا بين[٢] أهل التصوف، شريفًا في أهل المحبة.

وله رياضاتٌ كثيرة، ومعاملاتٌ جميلة، ونكتٌ عالية[٣]، ورموزٌ عجيبة، ونظرٌ صحيحٌ، وفِراسة صادقة، وعشقٌ كامل، وشوقٌ بلا نهاية.

واتّفقتِ الصوفيةُ على تقدُّمِهِ، وسمُّوه أمير القلوب، وقمر الصوفيةِ.

وكان تلميذَ السريِّ السَّقطي، وصحب أحمد [بن أبي] الحواري، وكان من أقران الجنيد رحمهم الله.

وهو مجتهد في الطريقة، وصاحبَ مذهبٍ، وكان من صدورِ علماء المشايخ.

ومعاملتُهُ موافقةٌ لمعاملة الجُنيد، ومن معاملته أنه قال: الصحبةُ بلا إيثارٍ حرامٌ، والصحبةُ مع أهل الفقر واجبٌ، والعزلةُ غيرُ مرضية.

وسُمّي نوريًا لأنَّه كلّما كانَ يُحدِّثُ بالليل يظهر مِنْ فيه نورٌ يُضيءُ البيت.

---

(١) طبقات الصوفية ١٦٤، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٩، تاريخ بغداد ٥/ ١٣٠، الرسالة القشيرية ٧٥، الأنساب ١٢/ ١٥٥، مناقب الأبرار ٣٨٩، صفة الصفوة ٢/ ٤٣٩، المنتظم ٦/ ٧٧، اللباب ٣/ ٢٤٢، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٥٦، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٧٠، البداية والنهاية ١١/ ١٠٦، طبقات الأولياء ٦٢، النجوم الزاهرة ٣/ ١٦٣، نفحات الأنس ١١٩، طبقات الشعراني ١/ ٨٧، الكواكب الدرية ١/ ٥٢٢.

(٢) في (ب): طريقًا بين أهل.

(٣) في (أ): ومعاملات حميدة، ونكتة عالية.

وأيضًا قيل: لأنّه كان يُخبرُ بنورِ الفراسة عن الأسرار الباطنة.

وقيل: لأنه كان له صومعةٌ في الصحراء، وهو يَشتغلُ فيها بالعبادة، والنورُ يلمعُ منها بالليل ويتصاعد.

نقل أنه كان في الابتداءِ يأخذُ من بيته كلَّ يومٍ عددًا من الخبز، ويذهبُ إلى دكّانه، ويتصدَّقُ بالخبز في الطريق على المساكين، وفي ظنِّ أهلِه أنّه يأكلُ في الدكّان، وأصحابُهُ في الدُّكّان يحسبون أنَّه قد أكلَ في البيت، وهو يدخلُ في المسجدِ، ويُصلّي إلى الظهر، وهكذا إلى عشرين سنة، ولم يطَّلعْ عليه أحد.

نقل أنه قال: اجتهدتُ سنين، وأعرضتُ عن الخلقِ كلِّهم، واشتغلتُ بالرياضة، ولم ينفتح عليَّ الطريقُ، قلت: يا نفسُ، أكلتِ وشربت، وقلتِ وسمعتِ، ونمتِ واستيقظت، وعشت واشتغلت بالشهوات مدّةً على حسب المُراد، ويجبُ عليك غرامتُها وضمانها، فالآن أحبسُك، وأجعلُ في عنقِكِ سلسلةً من حقوق الله تعالى، وأَقطعُك عن المُشتهيات والمُرادات. ففعلتُ ذلك أربعين سنةً.

وكنت أسمعُ أنَّ قلوبَ هذه الطائفة ترقُّ بكثرة الرياضة، حتى إذا سمعوا شيئًا، أو نظروا إلى شيءٍ اطَّلعوا على سرِّه[1]، وإنّي ما شهدتُ ذلك بعدُ في نفسي، فقلت: لا شكَّ في أن ما رُوي عن الأنبياء والأولياء حقٌّ وصدقٌ، لكنِ التقصيرُ إنّما هو منّي، فلعلَّ ما عملتُ من الأعمال كان رياءً، فلمّا تأمّلتُ في حالي، وجدتُ نفسي وافقتني في الأعمال، حتى أنَّ ما عملتُ من عملٍ كان للنفس فيه حظٌّ، ثم ألزمتُ عليَّ مخالفةَ النفس في جميع الأفعال والأقوال، حتى آيسَتْ منّي، وانقطعتْ عن جميع الأماني والآمال، وتوجَّهَتْ إلى الله تعالى بالكلّية، وعملتْ له بعد ذلك بالإخلاصِ التامِّ، بحيث ما بقي للنفس في شيءٍ من الأعمال حظٌّ، فانفتحَ بابُ الأسرار والمعارف على قلبي، فعلمتُ أنّ المرادَ لا يحصلُ إلاّ بترك المراد.

---

(١) قوله: (على سرّه) ليست في (ب).

ثم ذهبتُ إلى جنب دجلة، ووقفت بين زورقين، وقلتُ: لا أبرحُ عن هذا المكان حتى تقعَ سمكةٌ في شبكتي، فوقعتْ سمكةٌ عظيمة، فحمدتُ الله تعالى على ذلك، وتفاءلتُ به على حُسن حالي، وذهبتُ إلى الجُنيد، وحكيتُ له الحكاية، فقال: يا أبا الحسين، لو وقعتْ في شبكتك حيّةٌ لكان كرامةً، أمّا وقوعُ السمكة فتغريرٌ لك لا كرامة، فإيّاك والغرور.

أقول: معناه أنّ وقوعَ السمكة كان على وفقِ المُراد، ما دامَ السالكُ في مقام تحصيلِ مُراده، ويرى نفسه، فينظر إليها، فهو بعيدٌ من المقصود، لا قريب، وأمّا إذا لم يكنْ مُرادُهُ؛ بل تقعُ الأشياءُ على خلافِ مُراده، فذلك يدلُّ على أنّه منظورٌ بنظرِ اللطف[١]، ملحوظٌ بالكرامة والإعزاز، قال الشاعر:

لقد طابَ عيشُ الغَافلين ونومُهم وقد صارَ قلبُ العارفين مروَّعا

والله أعلم.

نقل أنه قد نهضَ شخصٌ من غلمان الخليفة بعدواة الصوفية[٢]، وقال عند الخليفة في حقّهم: إنهم الزندقة والإلحادُ، ويُحدّثون بالأشياء لا نعرف معناها[٣]. إلى أن أمر الخليفةُ بقتلهم؛ وهم أبو حمزة الخُراساني، والدقّام، والشبلي، والجُنيد، وأبو الحسين النُّوري رحمهم الله تعالى، وذلك بسبب شُبهةٍ أثبتوها عليهم بالزُّور، وحين قصد الجلادُ قتلَهم، قام النُّوري رضي الله عنه، وقدّم نفسَه، والتمسَ من الجلاد أن يُباشرَ بقتله أولاً، وكان مسرورًا مستبشرا، فتعجَّبَ الجلادُ عن حاله، وقال: يا شيخ، لأيِّ شيءٍ تستعجلُ؟ وليس هذا مقامُ العجلةِ، بل التأخُّرُ مطلوب! قال: نعم، ولكن بناءُ طريقتنا على الإيثار، والروحُ أعزُّ الأشياء، فأُريدُ أن أؤثرَهم عليَّ بأنفاسٍ. فعرض الجلادُ على الخليفة، فتحيَّرَ الخليفةُ في شأنهم، وثباتِ النُّوري وإيثاره، وأمرَ بالتوقُّف، وأمرَ القاضي أن ينظرَ في حالهم، فقال القاضي: إنّي لا أشكُّ في

(١) في (أ): على أنه منتظر بنظر الله اللطف.

(٢) هو غلام الخليل. انظر طبقات المُناوي ١/ ٥٢٣.

(٣) في (ب): ولا نعرفها، ولا معناها.

كمالِ الجُنيد[١] في جميعِ العلوم، وسمعتُ كلام النوري أيضًا، ولكن اسألُ الشِّبليَّ أيضًا مسألةً فقيهة، فقال: ما الواجبُ في عشرين دينارًا إذا ملكَهُ شخصٌ مسلم؟ قال: يجبُ عليه أن يبذلَ عشرين دينارًا ونصفَ دينارٍ. قال القاضي: عمّن تقول هذا؟ قال: عن الصدِّيق رضي الله عنه، حيث تصدَّقَ بجميعِ ماله. قال: وما النصف؟ قال الشِّبلي: لأنَّه أمسكَ عشرين دينارًا حتى وجبَ عليه نصفُ دينارٍ، فهذا النصفُ غرامةٌ لإمساكه وعدمِ صرفه. ثم سأل عن النُّوريِّ مسألةً، فأجابَ في الحال، وأصابَ، فخجلَ القاضي، فقال النُّوريُّ: يا أيُّها القاضي، تسألُ عن المسائلِ الفرعية، ولا تعلمُ أنَّ لله تعالى عبادًا به قيامُهم وقعودهم، وحركتُهم وسكونُهم، وحياتُهم وموتهم، وهم في مقامِ الشهود دائمًا، فإنْ فاتهم الشُّهودُ لحظةً تزهَقُ أرواحُهم عن أجسادهم، وبه ينامون، وبه يأكلون، وبه يَبطشون، وبه يمشون، وبه يُبصرون، وبه يسمعون، وبه وجودُهم، هذا هو العلمُ، لا الذي سألتنا عنه. فتحيَّرَ القاضي من كلامه، وأرسلَ إلى الخليفة، وعرَّفَ أحوالَهم لديه، وقال: لو كان هؤلاء من الملاحدةِ أو الزنادقة، لم يوجدْ على وجه الأرض موحِّدٌ. فطلبهم الخليفةُ، وأعزَّهم وأمرهم أن يسألوا عنه حاجةً، قالوا: حاجتنا إليك أن تَنسانا[٢] ولا تذكرنا بالردِّ ولا بالقبول؛ فإنَّ ردَّكَ وقبولَك عندنا سواءٌ. فبكى الخليفة، وأجاز لهم في الرجوعِ إلى منازلهم وصوامعهم.

نقل أنه قال: قد فُرِّقَ بيني وبين قلبي منذ أربعين سنة حتى ما اشتهيتُ في هذه المدة شيئًا، ولا أعجبني شيءٌ، وذلك من اليوم الذي عرفتُ الله تعالى.

نقل أنه قال: سألتُ اللهَ تعالى أن يرزقَني حلالاً دائمًا، فسمعتُ هاتفًا يقول: يا أبا الحُسين، لا يصبر على الدَّائمِ إلاّ الدائم.

نقل أنه جاء إليه شخصٌ، وشرع يبكي، وأبو الحسين النُّوري رحمه الله

---

(١) في (أ): في حال الجُنيد.

(٢) في (ب): إليك أنت تنسانا.

يبكي ببكائه، ثم لمّا خرجَ الرجلُ من عنده، قال للحاضرين من أصحابه: هل عرفتم الشخصَ؟ قالوا: لا. قال: هو الشيطان، كان يَحكي عباداته وخدماته، ويبكي من ألمِ الفراق والردِّ والطرد، وأنا أيضًا بكيتُ معه.

قال جعفر الخُلدي[١] رحمه الله: كان النُّوريُّ رحمه الله في خلوته مشغولاً بمناجاتِهِ مع الله تعالى فاستمعت له، فإذا هو يقول: إلهي، تعذّبُ أهلَ جهنم، وأنت خلقتَهم بقدرتك على وفق علمِكَ وإرادتك؟! وأعلمُ أنّك قادرٌ على أن تملأَها منّي وحدي، فأسألُكَ اللّهُمّ أن تملأَ جهنَّمَ منّي، وتدخلَ الناسَ كلَّهم الجنة. فتحيَّرتُ عن هذا، ثم رأيتُ في المنام كأنَّ شخصًا يجيءُ إليَّ ويقول: يا جعفر، قال الله تعالى: قل للنوري: إنّا غفرنا له ورحمناه بسبب شفقته وعاطفته.

نقل أنَّه قال: وجدتُ ليلةً المسجدَ الحرام ـ شرّفه الله ـ خاليًا عن الناس، فاشتغلتُ بالطواف، ووصلتُ إلى الحجرِ الأسود، وقلت: إلهي، ارزقني صفةً لا أتغيَّرُ منها، فسمعتُ صوتًا من داخل الكعبة: يا أبا الحسين، تُريد المعارضةَ معنا، فإنّا لا نتغيَّرُ عن أوصافنا، وأمّا العبادُ فهم يتغيَّرون من صفةٍ إلى صفةٍ، ومن حالٍ إلى حال لتتميزَ الرُّبوبيةُ عن العبودية.

قال الشبلي رحمه الله: دخلتُ على النُّوري رحمه الله وهو في المراقبة، ولا تتحرَّكُ عليه شعرة، فقلت: من علَّمَكَ هذه المراقبة؟ قال: إنّي قد تعلّمتُ من السنور؛ فإنَّه يترقَّبُ الفأرةَ بحيث لا تتحرَّكُ عليه شعرةٌ، بل هو أسكنُ منّي بكثير.

نقل أنَّ أهلَ القادسية[٢] سمعوا ليلةً صوتًا: أنَّ وليًا من أولياء الله قد حبسَ نفسه في وادي السباع[٣]، هلمُّوا إليه. فخرجَ الناس، وذهبوا إلى وادي السباع، فصادفوا الشيخَ أبا الحسين النُّوري رحمه الله قد حفرَ حفرةً[٤]، ودخلَ فيها،

---

(١) في (ب): جعفر الخدري.

(٢) القادسية: مدينة بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا. معجم البلدان.

(٣) وادي السباع اسم لأكثر من مكان، وهو هنا من نواحي الكوفة، معجم البلدان.

(٤) في (أ): حفر حفيرة.

فتضرَّعوا إليه، وألحُّوا عليه، وأخرجوه منها، وذهبوا به إلى القادسية، ثم سألوا عن حاله، قال: ما أكلتُ شيئًا من زمانٍ، وقد وصلتُ إلى بساتين النخل اشتهتْ نفسي الرُّطَب، قلتُ: قد بقيتْ لنفسي الشهوةُ، فأنزلُ هذا الوادي لعلَّ أسدًا يقصدني ويأكلني، لئلا أشتهي الرُّطب.

ونقل أنه قال: كنتُ أغتسل في ساقيةٍ، إذ جاء سارقٌ وسرقَ ثيابي، فما طلعتُ من الساقية، إلاّ أنه جاءَ وردَّ عليَّ ثيابي، وقد يبستْ يده، فقلت: إلهي كما هو ردَّ عليَّ ثيابي، أسألُكَ أن تردَّ عليه يدَهُ. فطابت يده في الحال.

قيل له: ماذا أحسنَ الله إليك؟ قال: من إحسانه إليَّ، إذا أدخلُ الحمامَ يحفظُ ثيابي، فإنّي دخلتُ الحمامَ في بعضِ الأيام، وسرقَ سارقٌ ثيابي، فقلت: إلهي، ردَّ عليَّ ثيابي. فجاء السارق بها، واعتذر.

نقل أنه وقع حريقٌ في السوق النخاسين[1] في بغداد، واحترق خلقٌ كثيرٌ من الجواري والمماليك، وكان في دكّانٍ مملوكان في غاية الجمال لشخصٍ تاجر، والنار مُشعلةٌ حواليهما، وهما يَصرخان ويستغيثان، ويقول صاحبُهما: من يُخرجُهما من هذه النار، فأُعطيه ألفَ دينارٍ من الذهب. وما كان أحد يجترىءُ أن يدخلَ النار، فبينما هم كذلك إذ جاء الشيخُ أبو الحسين النُّوري، واطّلعَ على حال الغلامين، فرّقَ قلبُه عليهما، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ودخلَ في النار، وأخرجَهما سالمَيْنِ، ثم جاء إليه صاحبُهما بألف دينار، ووضعها عند الشيخ، فلم يقبل، ولم يلتفتْ إليه، وقال: لو كنتُ أقبلُ مثلَ هذا لما كان يحصلُ لي هذا المقام، وما كنتُ بالغًا إلى هذه المرتبة، فاشكرِ الله تعالى على أن أَعطاني هذه المرتبةَ بتركِ الدنيا.

نقل أنّه قد مرّ برجلٍ قد مات حمارُه، ووقع حملُه على الأرض، وهو يبكي ويتضرَّعُ، وكان في موضعٍ بعيدٍ من العمران، فضربَ النُّوريُّ رحمه الله برجلِهِ

(١) في (ب): في السوق من النحاسين.

على الحمار، وقال: قمْ، ليس هنا مقام[١] النوم. فقام الحمارُ بإذنِ الله تعالى، وحملوا عليه حملَهُ، وركبَ عليه صاحبُهُ وراح.

ونقل أنَّ النُّوري رحمه الله قد مرض، وعاده الجُنيد رحمه الله، ومعه شيءٌ من الفواكه والورد، ثم بعد زمانٍ مرضَ الجُنيد، فعاده النُّوري في جماعةٍ من أصحابه، وقال لهم: ليحملْ كلٌّ منكم شيئًا من مرض الجُنيد ليطيب. قالوا: حملنا. فطاب الجنيد في الحال، وقال النُّوري: إذا عدتَ مريضًا عدْهُ هكذا، لا أن تحملَ إليه الفاكهةَ والورد.

قال: رأيتُ شيخًا ضعيفًا، ضربوه سياطًا، ولم يظهرْ له أنينٌ، ثم حبسوه في السجن، فانطلقتُ إليه، وقلت: أنتَ مع هذا الضعف، كيف صبرتَ على الضرب؟ قال: تحمُّلُ البلاءِ إنَّما هو بالهمَّةِ لا بالجسم. قلتُ: وما الصبر عندك؟ قال: أن يكونَ الدُّخولُ في البلاء كالخروج عنه.

سئل النوريُّ رحمه الله عن العبودية، قال: هو مُشاهدةُ الربوبية.

قال[٢]: متى يصيرُ الإنسانُ أهلاً أن يحدّثَ الناس؟ قال: إذا فهمَ من الله.

وقال: الإشارةُ هي الاستغناء عن العبارة.

قيل: ما الدليلُ على الله؟ قال: اللهُ دليلٌ على الله.

أقول: معناه: أنَّ الله خلقَ الأشياء، ورزقَ الأحياء، ثم أماتَ وأحيا، وأَضحكَ وأبكى، وأغنى وأقنى إلى غير ذلك، ليُستدلَّ بذلك على وجوده ووحدانيته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] **قال الشاعر:**

ففي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحدُ[٣]

والله أعلم.

---

(١) في (ب): ليس هناك مقام.

(٢) كذا في الأصلين. وكأن الصواب: قيل.

(٣) البيت يُنسب لمحمود الوراق، الديوان ١٦١، ولأبي العتاهية الديوان صفحة ١٠٤.

قيل: فما العقلُ على هذا؟ قال: العقلُ عاجزٌ، والعاجزُ لا يكون دليلاً.

وقال: الإسلامُ بابٌ مُغلق، لا ينفتحُ إلاّ عند وضعِ الرّجل[١] على خطِّ مُتابعة النبيِّ ﷺ.

وقال: الصوفية قومٌ خلصَتْ نفوسُهم عن آفات الهوى وغيره، وصفَتْ أرواحُهم عن كُدورة البشرية، وتنفّرَتْ قلوبهم وأسرارُهم عن غير الله تعالى، واستقرَّتْ به تعالى، فلا يكون الصوفيُّ مالكًا لشيءٍ، ولا مملوكًا لأحدٍ سوى الله تعالى.

وقال: الصوفيُّ أن لا يتعلَّقَ بشيءٍ، ولا يتعلَّقَ به شيءٌ.

وقال: التصوفُ ليس بعلومٍ ولا برسوم، إذ لو كانَ علمًا لحصلَ بالتعلُّم، أو رسمًا لحصلَ بالمُجاهدة؛ ولكنَّه أخلاقٌ كما قال النبيُّ ﷺ: «تخلّقوا بأخلاقِ الله[٢]» والتخلُّقُ بأخلاقٍ ليس من العلوم ولا من الرسوم.

وقال: التصوُّفُ هو الحرية، والفتوَّةُ والسخاوة وترك التكلّف.

وقال: التصوفُ هو تركُ حظوظِ النفسِ كلِّها لله تعالى.

وقال: التصوفُ معاداةُ الدنيا[٣]، ومُوالاة المولى عز وعلا.

نقل أنه سمعَ عن رجلٍ أعمى يقول: الله الله، فقال له النُّوريُّ رحمه الله: أنتَ لا تعرفه، ولو عرفتَهُ لَما بقيتَ. فقال هذا ودُهِش عليه[٤]، ثم غلبَ عليه الشوقُ، وخرجَ إلى الصحراء، ووقعَ في مقصبةٍ قد حُصدَ قصبُها، وكان يدورُ ويقول: الله الله، وتنجرحُ رجلاه، ويخرجُ الدم، وينتقش منه على الأرض:

---

(١) في (أ): إلا عند وضع الرأس.

(٢) لم أجد الحديث في المصادر التي بين يدي، وقد ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (كتاب المحبة والشوق والأنس، (بيان أن المستحق للمحبة) ٣٠٦/٤، بصيغة: حتى قيل: تخلقوا. . كما ذكره الجرجاني في التعريفات، ضمن تعريف (الفلسفة).

(٣) في (أ): معاداة مع النفس والدنيا.

(٤) قوله: (عليه) ليس في (ب).

(الله)، ثم ذهبَ إليه أبو نصر السرَّاج، وأذَهبه إلى بيته، وقال له: قل: لا إله إلا الله. فقال: نعم، أعودُ إليه الآن. وتوفّي إلى رحمة الله تعالى في الحال.

قال الجُنيد: منذ ماتَ النُّوري لم يتكلّمْ أحدٌ في حقيقة الصدق؛ فإنّه كان صدّيقَ زمانه، رحمه الله رحمةً واسعة.

نسألك اللهم خالقَ الأرض والسماء، محيي الأموات، ومُميت الأحياء أن تُحيي قلوبَنا بنورِ معرفتك، وأن لا تحرمنا من مَوائد[1] رحمتك ومغفرتك، فإنّك أنتَ الوهابَ الكريم، وأن تُصلّي على سيّدنا وشفيعِنا محمد وآله الطاهرين أجمعين، وأن تَحشرنا في زمرته، وتبعثنا في أُمّته.

* * *

(١) في (أ): تحت كلمة (موائد) كتب: مؤمَّلِ.